منهجُ الإصلاح الدِّينيّ عند الإمام النَّورسي

مصطفى تاج الدِّين *

مُقدِّمة

من أزمات الوعي العربي أن تنشد الأفكار إلى الواقع، وتخلد إلى الأرض بطريقة لو أدركها كارل ماركس نفسه لتنبأ بنجاح الفكرة الماركسية في الدول العربية والإسلامية بدلاً من التنبؤ بذلك في برمنغهام. ويحاول كثير من المثقفين العضويين (أي المنتمين إلى اتجاه معين) داخل التيار الاسلامي أن يقنعوا الناس بأن الفكر سابق على الواقع وأن الإنسان هو صانع تاريخه وليس العكس، ومع ذلك تبقى أفكارهم رهينة اليومي، وضحية الاهتمام بالجزئيات المتناسلة، في غياب وعي الاستشراف، والنظر المستقبلي المتحلل من أوزار الواقع والمتنبئ بالمآل، ولقد رجعت لنفسي بعد تجربة دامت أكثر من عقد من الزمن في إطار العمل الاسلامي أفكر في مآلات الحركة الإسلامية، وأهدافها البعيدة وحاولت قدر المستطاع أن أتجرد من النسق الكلي للأفكار التي تبنيناها لمدة غير يسيرة من الزمن. إذ أصبحت مقتنعاً بأن التفكير من داخل النسق لا ينتج فكراً مستقبلياً لأنه فكر محكوم بالهموم اليومية وردود الأفعال،

* أستاذ مساعد بقسم الدراسات العامة، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

وتأكدت من خطورة انتماء العلماء إلى الأحزاب والحركات وهي بدعة جديدة جنت على الاجتهاد وجعلته مرهونا لدى المؤسسة أو التنظيم أوالجمهور.

ولا يغرنك اهتمام أبناء الحركات الإسلامية للعلماء بخدمتهم للسلطة، فقد أحيانا الله لنرى أنصاف العلماء ترهنهم جماهيرهم، وتوظفهم تنظيماتهم، ولا فرق عندي بين خدمة الفكر للسلطة وخدمته للجمهور أو الحزب ما دامت النتيجة واحدة: قتل حرية الفكر ووأد الابداع. لقد نادت الحركة الإسلامية منذ نشأتها بضرورة التجديد، ونجحت نجاحاً كبيراً في إعادة الاهتمام بالتأصيل الديني للأفكار والنماذج المعرفية المتبعة، غير أنها لم تنتبه إلى أن المتغير الزمني داخل معادلة الاصلاح ليس متحيزاً، بل هو محايد تماماً وجريان أحكامه على الآخر لا يعني أن في الحركة الإسلامية مناعة خاصة تجعلها بمعزل عن تأثيره، وتفصيل هذه الفكرة أن الحركة الإسلامية اعتبرت نفسها أداة التغيير ووسيلة الاصلاح واعتبرت ما حولها من مجتمع وسلطة وأفراد موضوع التغيير وميدانه، ونسي منظروها تحت وطأة التفكير من داخل النسق أن الحركة نفسها قد تتحول إلى موضوع للتغيير، وأن التجديد الذي تنادي به ينبغي أن تنـــزل مقتضياته على أفكارها ومناهجها ووسائلها. ذلك أن متغير الزمن فاعل في تغيير فعالية الأفكار، والتقليل من قدر التزام الناس بها، ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه السنة الكونية في قوله عن أول بشر خلقه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ {طه: ١١٥}، وفي قوله عن أهل الكتاب: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِيْنَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نـــزلَ مِنَ الحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كالَّذِيْنَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيْرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ {الحديد: ١٦}.

وما زال كثير من أبناء الحركة الإسلامية بفعل الضعف الأخلاقي الإيماني لا يتصورون حدوث تغيير اجتماعي مصلح خارج تصوراتهم ومخاييلهم التي تداعبها الرومانسية المهدوية، وسيمفونية الطائفة المنصورة، ولهذا السبب تجد أن عملية إنتاج الأفكار داخل الحركات الإسلامية عملية بطيئة، والأفكار التي يسمح لها بأن ترى النور محكومة بدكتاتورية النسق، بحيث يصعب أن تجد مجالاً للأفكار الناقدة، والتي من شأنها أن تضخ دماً جديداً في العروق المتجمدة ليؤدي عمله في دورة الإصلاح وإعادة النظر في المسيرة.

والعجيب أن تتحول كل إحباطات العمل الاسلامي إلى نصر في أذهان الإسلاميين

بضرب سمج من التأويل وهو أن المحنة دليل على صحة الطريق، والابتلاء دليل على سلامة المنهج، وهذا صحيح لو أعقب المحنة فكر جديد، وأطل علينا بعد الابتلاء نسق مختلف، أما وأن حليمة بعد كل نكسة تعود إلى العادة القديمة فإن المحنة حينها تكون عقاباً، والابتلاء جزاء سننياً ينال كل من لم تسعفه حكمة، ولم يحضره عقل لتجنب العاصفة والتجانف عن المحذور.

وبفعل التأويل السمج تتحول أمراض الجسد الحركي إلى مشاكل عادية، وتعفنات المؤسسة التنظيمية إلى دليل على ثراء الاختلاف! وصدق المتنبي حين قال:

أعيذُهَا نَظَرَات منك صادقةً ... أن تحسبَ الشَّحمَ فيمن شحمُهُ وَرَمُ

وإذا كان المثقف بفعل قدرته على التحليل، وأهليته للاستشراف، هو من يستطيع ان يسمي الاشياء بأسمائها داخل التنظيم، فإن هيمنة السياسي، والحركي على المثقف في توجيه مسيرة المؤسسات تفقد الجمهور القدرة على الاقتناع بما يقول المثقف وتسلم قيادها لقليلي البصر والبصيرة ليوردوها هلكة لا تكون الحركة وحدها ضحيتها، بل الإسلام نفسه بأزمات الحركات قد يوضع - لا قدر الله - موضع التساؤل من جديد.

والحقيقة أن هذا الوعي النقدي الذي التزمنا به بعد تجربة متواضعة في ميدان العمل الحركي قد ترسخ لدينا بعد أن اطلعنا على بعض من تصورات علم من أعلام العمل الإسلامي وهو بديع الزمان النورسي.

١ - العمل الإسلامي وأزمة المعيار

لعل من المعروف أن رحلة النورسي الإصلاحية تنقسم إلى قسمين :

- مرحلة النورسي القديم.
- مرحلة النورسي الجديد.

ولقد طبعت شخصية النورسي في مرحلتها الأولى بطابع ثوري واضح، وانخراط مباشر في العمل السياسي. كان هذا التوجه منسجماً مع المزاج الحاد الذي عرف به رحمه الله، فقد كان شديد الغضب[١]، ذا شمم واضح يورده موارد التحدي كلما استشعر ذلاً أو أحس بغمز في الكرامة.

---

[١] محمد زاهد الملازكردي، **عجالة مقتطفة من أقلام أفاضل العلماء والدكاترة في حياة الإمام الجليل بديع الزمان سعيد النورسي** (بيروت: دار الآفاق الجديدة، د،ط،ت) ص٥٠.

والحقيقة أن منهج الإصلاح عند النورسي قد تأثر تأثراً واضحاً بالمرحلتين، حيث بدأ مؤمناً بالعمل السياسي وسيلة لإنقاذ الخلافة ومواجهة الاستعمار بكل أشكاله، وانتهى مقتنعاً بعدم جدوائية العمل السياسي[٢] إذا قورن بالعمل الإصلاحي العام والذي يبدأ من الإيمان بالفكرة في اتجاه إحداث تحول شامل في نمط التفكيرعملاً بمضمون قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بقَوم حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسهِمْ﴾ {الرعد: ١١}.

ولم يكن النورسي بعيداً عن التأثير والتأثر بمناهج إصلاحية كتب لها الرواج في العالم العربي والإسلامي، ولعل من السهل جداً العثور على مثل هذا التأثر ليس في كتاباته فحسب بل في منهجه الحركي والإصلاحي بصفة عامة[٣]. غير أننا نود أن نستدرك بعضاً مما فات الأستاذ الدغامين في مقارنته الناجحة بين النورسي ومحمد عبده. ويرتبط تصورنا هذا بمنطلق نقدي جديد للعمل الإسلامي يدور حول صلة الحركة الإسلامية في بعدها السياسي بجهود الإصلاح التي قام بها زعماء دينيون أمثال الأفغاني، ومحمد عبده، وجعفر الكتاني، وابن باديس وغيرهم.

فمن المعلوم أن مناهج الإصلاح عند هؤلاء، على اختلاف ظروفها وفعاليتها، انتظمها نسق موحد في النظر إلى أسباب تخلف الأمة وسبل النهوض بها، ويمكن تلخيص هذا النسق في شكل ضروريات خمس كما يلي:

- ضرورة التجديد ونبذ التقليد.
- ضرورة الحوار الداخلي بين المسلمين على اختلاف طوائفهم واتجاهاتهم.
- ضرورة الحوار الخارجي مع "الآخر" دون تحرج من الاستفادة منه.

---

٢ نتعامل هنا مع السياسة بمفهومها الممارس والواقعي وهو ما تنكر له النورسي وابتعد عنه، أما السياسة في بعدها النبيل والشرعي والتي تعني سياسة أمور الناس بما يجلب مصلحة ويرد مفسدة فلا إخال أن في كتابات النورسي ما يشير إلى الغض منها، بل يمكننا مطمئنين أن ندرج المشروع النوري في إطار العمل السياسي بالمفهوم الحضاري للكلمة والذي ينطلق بلا تكتيك أو حسابات من تغيير النفس ونمط التفكير في اتجاه إحداث انقلاب حضاري سلمي في المجتمع.

٣ لقد أبرز الدكتور الدغامين موفّقاً جهات الالتقاء والاختلاف بين النورسي ومحمد عبده، راجع: الدغامين، زياد خليل، **إعجاز القرآن وأبعاده الحضارية في فكر النورسي** (إزمير: دار النيل، ط١، ١٩٩٨).

- ضرورة إعمال العقل من جديد ونبذ الحرفية النقلية.
- ضرورة المعرفة في العمل الإصلاحي.

غير أننا لاحظنا أن العمل الإسلامي المنظم في ثوبه الذي أعقب جهود الإصلاح تلك، قطع عموماً مع هذا الإرث الإصلاحي الثر، وقلب مركب الإصلاح نحو وجهة جديدة يمكن تلخيص نسقها في ضرورات خمس مقابلة للضرورات السابقة وهي :

- ضرورة اتباع السلف وهو ما يفيد خلاف ظاهره، إذ يعني ضرورة التقليد والتمسك بالقديم
- ضرورة التميز والمفاصلة بدل الحوار.
- ضرورة التمسك بالنص (السنة خصوصاً) بدل التمسك بالكليات العقلية المنصوص عليها.
- ضرورة التسيس بدل المعرفة.
- ضرورة إقامة الدولة بدلا من ضرورة الإصلاح.

لقد مثلت الصحوة الدينية المعاصرة - مع استثناءات معتبرة - تراجعاً واضحاً عن مكتسبات الخطاب الإصلاحي النهضوي، حيث شجعت التقليد، وأوغلت في العمل السياسي اليومي، فأضحت موئلاً لاستقطابات حركية لا تنتهي إلا بتفتت يقود إلى آخر، وجماعة تنسل من أخرى. وكانت النتيجة أن ضعف الرصيد الأخلاقي الذي يمثل الرأسمال الرمزي للجماعات الإسلامية حتى أضحت في عمومها لاتختلف عن الأحزاب القائمة بل إنها هي نفسها تحولت إما إلى أحزاب سياسية، أو دعمت أحزاباً قائمة من أجل تيسير عملها داخل مؤسسات الدولة.

غير أن ما يميز المنهج الإصلاحي النوري هو توسطه المثمر بين منهج الإصلاح في ثوبه القديم، ومنهج التغيير في ثوبه الحركي. فلئن كانت حركة الإصلاح الديني والاجتماعي لم تؤت ثمارها بسبب غياب البعد التنظيمي، فإن الحركات الإسلامية منذ حسن البنا رحمه الله قد ضخمت من التنظيم حتى أصبح عائقاً أمام الامتداد الأفقي في المجتمع، وكان سبباً لظهور المركبات غير الأخلاقية في الوسط الإسلامي من تعصب، وتنافر وتنابز بالألقاب. أما المشروع النوري فقد تجاوز سلبيات التصورين على المستوى النظري - على الأقل - في محاولة منه الإبقاء على الجاذبية الأخلاقية للمشروع الإصلاحي، وفي الوقت ذاته تأسيس حركة منظمة لا تذوب في المجتمع وإن كانت

جزأ منه حتى يتسنى للعمل الإصلاحي الانفتاح على المجتمع دون حساسية تنظيمية طائفية من جهة، ومن جهة أخري حتى يتمكن هذا العمل من الاستمرار عن طريق الحفاظ على رصيده التنظيمي الداخلي.

لقد كان من الواضح أن عملية التغيير والإصلاح الاجتماعي التي قادها دعاة كثيرون منذ عصر النهضة الإسلامية الحديثة ممثلة في جهود الأفغاني وعبده، حتى ظاهرة الصحوة الإسلامية المعاصرة، كانت تعيش ولازالت أزمة في معايير العمل الحركي، ونقصد بالمعيار القياس الذي تقاس به الإحباطات والإنجازات الدعوية. وعند الفحص في هذا الموضوع يبدو لنا وبشيء من التلبس أن ثمة معيارين قد تم تطويرهما واعتمادهما من لدن أولئك المنهمكين في العمل الإسلامي وهما:

- المعيار المبدئي أو الإيماني.
- المعيار الكمي أو السببي.

ولأن لي غرضاً خاصاً في بسط الحديث عن المعيار الثاني فسأبدأ في تناوله شرحاً وتفسيراً إلى أن يتضح بالخلف المعيار الأول والذي سنشبعه تفصيلاً في المحاور القادمة.

إن الحديث حول إشكال الفعل الإنساني وصلته بالأسباب المادية حديث قديم قدم المعرفة الإنسانية، وهو في مجال التداول الإسلامي قديم قدم السؤال المعرفي والسياسي في مسألة القضاء والقدر ومشكل الجزاء الإلهي ومدى تعلقه بالإرادة الإنسانية. فلا جديد في هذا الموضوع ندعيه سوى محاولتنا هذه في تنزيل التصورات الفكرية على القضايا العملية وخصوصاً في مجال حيوي هو العمل الإسلامي والتغيير الإجتماعي.

ويأتي إطلاقنا لصفة الكمي على المعيار السببي ليعيد الحوار حول مشكل السببية جذعاً بين المفكرين المسلمين إذ عليها مدار الأمر في العمل للإسلام ما دامت الأسباب مؤثرة في البواعث الإرادية للعمل، وفي النتائج المترتبة عليه. ذلك أننا نعتقد أن البحث في مشكل السببية كان مرتبطاً بنشأة البحث الفلسفي

والكلامي حول الحدود المعرفية للعقل[٤]، وإذ لم تكن قضية العقلانية في مجال التداول الإسلامي بعيدة عن النـــزعات المادية في التراث الإسلامي؛ فإن مآل فكرة السببية سيعود في نهاية المطاف إلى أحضان الفكر المادي ذي النـــزوع نحو القياس الكمي لحركة الفعل الإنساني.

ومدار القياس الكمي على فكرة اللزوم المنطقي والوجودي بين الأسباب والنتائج، ويتأسس المفهوم الكمي في عيار الأسباب على مفاهيم منها :

١- مفهوم الضرورة ونفي الاحتمال: أي أن النتائج تصدر عن أسبابها على جهة الضرورة أو الحتم وهو ما يسقطنا في الحتمية الآلية التي هي نوع من الشرك الظاهر لأن نتيجة القول بالضرورة هي الحد من القدرة الإلهية.

٢- مفهوم اللزوم ونفي التساوق: ومعناه أن العلاقة بين الأسباب ونتائجها علاقة لزومية بحيث يوقع هذا في الاعتقاد بأن السبب موجود وراء كل نتيجة مع أن الأسباب في

---

٤ لقد شاع في الفكر الإسلامي المفهوم التجريدي للعقل، حيث نظر إليه باعتباره جوهراً أو ذاتاً يحدث بها التعقل كأي عضو آخر في تكوين الإنسان، وهذا هو المفهوم اليوناني للعقل. بيد أننا لا نريد أن نعمم هذا الحكم إذ ارتفعت أصوات قوية في التراث نادت بضرورة إعادة هذا المصطلح الفعال إلى مجال التداول الإسلامي الأصيل والذي شكله القرآن الكريم، ومعهود العرب في الخطاب، ومن هذه الأصوات شيخ الإسلام ابن تيميه وتلميذه ابن القيم حيث لاحظا أن العقل ليس جوهراً ثابتاً وليس ذاتاً يحل بها الإدراك، بل العقل فعل من الأفعال وعرض من الأعراض غير المتحيزة، وهذا يؤدي حتماً إلى تثوير النظر في مفهوم العقلانية، فعلى أساس التعريف القرآني فإنه يجوز لنا أن نتحدث عن أصناف متعددة من العقلانيات (المنهج) ونماذج متعددة من من المعقولات (المعرفة) ولقد بسط القول في هذا أستاذنا الجليل الدكتور طه عبد الرحمن ولمن أراد التزيد فعليه بالرجوع إلى:

طه عبد الرحمن، **العمل الديني وتجديد العقل** (بيروت: المركز الثقافي العربي، ط٢، ١٩٩٧) ص١٧-٢١.

ـــ **تجديد المنهج في تقويم التراث** (بيروت: المركز الثقافي العربي، ط٢، د. ت) ص٣٥٧-٣٥٨.

ـــ **سؤال الأخلاق، مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية** (بيروت والدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٠) ص٦٢-٦٣.

مجملها تتلبس بالنتائج، وتتساوق معها حتى كأنها علل نهائية لها والحال أنها أمارات لها فقط ونستطيع في حالات كثيرة أن نغير النتائج مع وجود ما نتوهمه أسباباً لها.

٣- مفهوم الاطراد ونفي المعجزة: إن الإيمان الآلي بالسببية يؤدي إلى الاعتقاد في الاطراد لتعليل الظواهر أي أن ما يقع أمام أعيننا ليس منفكاً عن أسباب أوجدته وهكذا يصار إلى نفي المعجزات وخصوصا بعد تصرم عهد الرسالة والوحي.

٤- مفهوم التجرد ونفي الإرادة الحرة (الإرادة الإيجادية - الله - والإرادة التغييرية - الإنسان): قلنا سابقاً إننا نستطيع في حالات كثيرة أن نغير النتائج مع وجود ما نتوهمه أسباباً لها، وهذا ما يفسح المجال من جديد للإحساس بفعالية الإرادة الربانية في تغيير النتائج، وأيضاً بفعالية الإرادة التغييرية للإنسان الذي يستطيع ضرب القدر بالقدر والفرار من أحدهما إلى الآخر من أجل مصلحة راجحة أو فائدة مرجوة .

ولقد لاحظنا أن فكرة السببية أو السننية قد هيمنت على العمل الإسلامي فكانت النتيجة أن ذوى البعد الإيماني والأخلاقي وأعطي مجال واسع للتفكير من داخل الأنساق التي يحكمها منطق التعليل الكمي، هكذا فقدت حرارة الإيمان مكانها لتحل محلها التفسيرات الباردة، التي تعلي من شأن الأسباب على حساب قوة الأقدار.

لم يكن موقف النورسي من قضية السببية موقفاً فكرياً مجرداً، بل كان موقفه موقفاً إيمانياً أخلاقياً أملاه عليه استشعاره لعظمة الله، وتيقنه بتفاهة ما حوله من الناس والأشياء فكان تصوره تعبيراً عن تمكن في الإيمان ورسوخ في التواضع يقول : «أيها الغافل الغارق في عبادة الأسباب! إعلم أن الأسباب ليست الاَّ ستائر أمام تصرف القدرة الإلهية، لأن العزة والعظمة تقتضيان الحجاب، اما الفاعل الحقيقي فهو القدرة الصمدانية، لأن التوحيد والجلال يتطلبان هذا، ويقتضيان الاستقلال». [٥]

٢ - منهج النورسي بين الأخلاق والسياسة

من الصعب أن نـــزيل عن المشروع النوري طابعه السياسي، فهو مشروع يتغى تحرير الإنسان عن طريق إنقاذ الإيمان، ولهذا لوازم معروفة إذ كلما أنقذ إيمان فرد تحول إلى لبنة في البناء المجتمعي المستقبلي، ويلاحظ أن فهم السياسة عند النورسي الجديد لا يخرج عن هذا الإطار. ومن تم فقد تجاوز الرؤية التقليدية للسياسة بوصفها

---

[٥] النورسي، **الكلمات**، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ص ٣٢٦.

فن إدارة الصراع من أجل الوصول إلى الحكم. ويشير طه عبد الرحمن إلى هذا المعنى العميق للتحول السياسي حينما رفض الفهم المتعارف عليه لأنه لا يمت للإسلام بصلة كما أن اعتماده يعود بالسلب على الإيمان النظيف: «... وعلى حين غرة وردت خاطرة على قلبي أورثت الطمأنينة التامة والقناعة الكاملة وبقطعية تامة. فقد قيل لي: إن تأويل بشاراتك وأخبارك منذ مدة برؤية نور - والتي كنت ترتبط بها بعلاقة جادة وتكررها - وتفسيرها وتعبيرها بحقكم بل بحق عالم الاسلام من حيث الإيمان هو: رسائل النور، فهي ضياء، حيث أخذت جلّ اهتمامك، بل هي نور ومقدمة وبشرى لما كنت تتخيله وتظنه في دائرة واسعة وفي عالم السياسة ولما سيأتي من حالات سعيدة متسمة بالدين. هذا النور المعجّل تصورته تلك السعادة المؤجلة فكنت تبحث عنه لدى باب السياسة».[٦]

فرسائل النور إذاً هي مقدمة بين يدي البشارة الكبرى وهي المجتمع المؤمن الذي يقوم على أساس الإيمان ليفي بواجب الخلافة ومقتضى الأمانة. ولذلك فليس العمل الإيماني النوري عملاً فردياً كما هو في حالة العمل الصوفي، كما أنه ليس عملاً جماعياً لا يراعي الفرد وحاجاته في التزكية ولكنه عمل إيماني جماعي ذو أهداف جماعية كلية تتجاوز النصر السياسي البسيط إلى نقل المجتمع من حال التيه إلى الرشاد ومن الضلالة إلى الهداية فالرسائل : «لا تسعى لإصلاح قلب خاص ووجدان معين بل تسعى ايضاً - وبيدها اعجاز القرآن - لمداواة القلب العام المجروح، وضماد الأفكار العامة المكلومة بالوسائل المفسدة التي هُيئت لها وركّمت منذ ألف سنة، وتنشط لمداواة الوجدان العام الذي توجّه نحو الفساد نتيجة تحطم الأسس الإسلامية وتياراته وشعائره التي هي المستند العظيم للجميع ولا سيما عوام المؤمنين. نعم إنها تسعى لمداواة تلك الجروح الواسعة الغائرة بأدوية إعجاز القرآن والإيمان».[٧]

ويرى النورسي بعين ثاقبة خطورة حصر الاهتمام في العمل السياسي، وهو ما نشاهده الآن في الجسم الحركي من تضخم في التحليلات، وبرود في التفاعل مع حقائق الإيمان. لقد أنتج هذا التلهف على العمل السياسي قلوباً جافة، وضمائر هشة

---

[٦] النورسي، **ملحق قسطموني**، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ص١١٧.

[٧] نفسه، ص١١٨.

تخاف من أهل السلطة في المغارم، وتخاف على الحظوظ في المغانم، يقول النورسي: «نعم إن مسائل السياسة تتعلق - إلى حد ما - بوظيفة العاملين في الشؤون الخارجية وأركان الحرب في الجيش والقادة المسؤولين. أما دفع تلك المسائل إلى رجل عامي ساذج وإثارته بها، وصرفه عما يلزمه من وظائف تجاه شؤون روحه وأمور دينه، بل حتى تجاه شوونه الشخصية بالذات ولوازم بيته وقريته، ومن ثم جعله بهذا التلهف، والفضول سائب الروح، ثرثار العقل، فاقداً لأذواق القلب نحو الحقائق الإيمانية والإسلامية، خائر الشوق إليها.. وكذا أثارتهم بتلك الاهتمامات التافهة التي تقتل قلوبهم معنىً - بما يشبه تهيئة الجو الملائم للالحاد - ودفعهم إلى استماع الراديو في شؤون سياسية لا تعنيهم في شئ... أقول: إن كل ذلك لضرر بالغ للحياة الاجتماعية الإسلامية بحيث إن الإنسان كلما فكر بنتائجها الوخيمة المترتبة عليها يقشعر من هولها جلده، ويقف شعره! نعم، إن كل انسان له علاقه بوطنه وقومه وحكومته، ولكن من الخطأ الجسيم جعل منافع الإمة ومصلحة الوطن والحكومة تابعة لسياسة مؤقتة لبعض الاشخاص انجرافاً لتيارات موقتة، بل تصوّرها نفسها.. فضلاً عن أن حصة كل شخص من تلك الروح الوطنية والقومية وما تترتب عليها من وظائف إن كانت واحدة، فإن حصته تجاه وظائف قلبه ومهمات روحه وواجباته الشخصية والبيتية والدينية وغيرها عشرون بل مائة حصة».[8]

لاحظ ونلاحظ هنا كيف جعل النورسي العمل السياسي عمل نخبة، والتي من المفروض أن تكون قد تلقت من التربية ما يجعلها بمنأى عن الآثار الجانبية للعمل السياسي، أما الجمهور العام فمن الواجب التوجه إليه بالتربية بدلاً من إثارته بأشجان السياسة وقضايا الصراع الإيديولوجي وهذا يعني أن وظيفة العمل السياسي عند النورسي ذات بعد أخلاقي أصيل يترقى بغرائز الناس نحو الفضائل، ويربي نوازعهم نحو طلب الكمال، ولعمري إن هذا التصور على الرغم مما قد يوجه إليه من نقد بدعوى مثاليته، تصور يعيد للعمل السياسي معناه ويخرجه من كونه فن اللعب بالممكن إلى فن تخليق الحياة العامة والخاصة في اتجاه إيجاد مجتمع الذوق العالي والأخلاق النبيلة، وإذا تأتى لمجتمع ما أن يصل إلى هذا المستوى فإن السياسة ستصبح فيه مكرمة وجهاداً

---

٨ ملحق قسطموني، ١١٩-١٢٠.

والقعود عنها مغمزةً وتخلفاً.

٣ - أولويات العمل الإصلاحي

إن العمل التغييري الإصلاحي يحتاج في نظر النورسي إلى إعادة النظر في الأولويات المتعلقة بواقع الدعوة، أي ما الذي ينبغي أن نبدأ في إصلاحه؟ ولقد وضع النورسي ثلاث مجالات يتصورها موضوعاً للتغيير وهي : الحياة والشريعة والإيمان[٩]، ويراهن النورسي هنا انطلاقاً من مركزية الأخلاق في مشروعه الإصلاحي على أن المهدي المنتظر نفسه، وهو هنا رمز للعمل الدعوي الصحيح، لو انبرى للإصلاح لاختار أن يبدأ بالإيمان لأنه أولى الأولويات يقول : «في هذا العصر تيارات قوية ومسيطرة إلى درجة تستحوذ على كل شئ، وتستولي عليه، و تمتلكه لنفسها، و تسخره لأجلها، فلو أتى ذلك الذي يُنتظر مجيئه حقاً في هذا العصر، فإنني أرى أنه يغيّر هدفه، ويجرّد نفسه من الأجواء والأحوال الدائرة في عالم السياسة، حفاظاً على أعماله من أن تغتصبها تلك التيارات. ثم إن هناك ثلاث مسائل هي:

الحياة.. الشريعة.. الإيمان

وأن مسألة "الإيمان" هي أهم هذه المسائل الثلاث وأعظمها في نظر الحقيقة. بيد أن "الحياة" و "الشريعة" تبدوان في نظر الناس عامة و ضمن متطلبات أوضاع العالم أهم تلك المسائل. ولما كان تغيير أوضاع المسائل الثلاث كلها دفعة واحدة في الأرض كافة لا يوافق سنة الله الجارية في البشرية، فإن ذلك الشخص المنتظر لو كان موجوداً في الوقت الحاضر لاتخذ أعظم تلك المسائل و أهمها أساساً له دون المسائل الأخرى، وذلك لئلا تفقد خدمة الإيمان نـــزاهتها وصفاءها لدى الناس عامة، ولكي يتحقق لدى عقول عوام الناس - الذين يمكن أن يُستغفلوا ببساطة - أن تلك الخدمة ليست أداة لأي مقصد آخر».[١٠]

من الواضح أن المشروع التغييري عند النورسي مشروع إيماني بالأساس، يتقصد نفث الإشارات الإلهية في النفوس حتى تتحلل من أوزار الإخلاد إلى الأرض، غير أن من المهم الإشارة إلى أن الارتكاز على البعد الإيماني لا يعني أنه تبسيط للمعركة مع

---

٩ نفسه، ص١٣٦.

١٠ ملحق قسطموني، ص١٣٦.

الباطل ورد لها إلى البعد الشخصي، بل إننا نتصور أن هذا المهيع التغييري منبثق من حصافة رأي ورهافة حس بسلم الأولويات في العمل الإسلامي، ذلك أن الاستعدادت العقلية والحركية عند الإنسان ليست كلاً قابلاً للتجزيء بحيث يتصور أن يرتد المجاهد إلى قاعد أو العكس بناء على ضعف في الاستعداد الذهني في الاختيار، بل إن الأمر في حقيقته اختيار قلبي وعقلي لسلوك مهيع وانتقاء طريق، وفي حالة شيخنا النورسي فإن رجلاً شارك في الحروب، وانتقل من سجن إلى أسر، وبقي ثابتاً على الفكرة مع البلاء ليشير إلى أن اختيار المنهج الإيماني في عملية التغيير اختيار أملته حكمة، واستلزمه نظر نافذ وليس تبسيطاً للمعركة، واختياراً لغير ذات الشوكة كما قد يزعم زاعم.

يتأسس المنهج التغييري عند النورسي على:

- اقتناع بمركزية الإنسان في العملية التغييرية.
- وعي بالمخططات المعادية للإسلام.

بحيث استقر نظر النورسي على أن الحصون المهددة في الكيان الإسلامي ليست سوى حصون الإيمان، ومن هناك ينبغي أن ينطلق البناء. يقول : أما الآن فإن هناك هجوماً عنيفاً جماعياً منظماً على أركان الإيمان واسسه، لا تستطيع أغلب تلك الكتب والرسائل التي كانت تخاطب الأفراد وخواص المؤمنين فقط أن تصد التيار الرهيب القوي لهذا الزمان، ولا أن تقاومه.

أما رسائل النور، فلكونها معجزة معنوية للقرآن الكريم فهي تنقذ أسس الإيمان وأركانه، لا بالاستفادة من الإيمان الراسخ الموجود، وإنما بإثبات الإيمان وتحقيقه وحفظه في القلوب وإنقاذه من الشبهات والاوهام بدلائل كثيرة وبراهين ساطعة. حتى حكم كل من ينعم النظر فيها: بأنها أصبحت ضرورية في هذا العصر كضرورة الخبز والدواء.[١١]

يلاحظ هنا أن عملية ترسيخ الإيمان الحركي، والذي نميزه عن الإيمان الشخصي بميزة واحدة وهي أنه إيمان ذو بعد تبشيري رسالي يتغيى الدفاع عن الحصون المهددة، فهو خطة جماعية يقع فيها الفرد في المركز وبدونه لا تقوم لمشروع النور قائمة، قلت

---

١١ ملحق قسطموني، ص ١٠٥.

يلاحظ على هذا الإيمان أنه يتأسس على بعدين يريد لهما النورسي أن يكونا وجهين لعملة ذهبية واحدة :

- البعد القلبي الخالص.
- البعد البرهاني.

ينبغي النظر إلى مشروع النورسي الإصلاحي بهذا المنظار المزدوج الذي يشمل الإيمان الراسخ بالعمل، والعقيدة الثابتة بالفكر، فيكون المشروع التغييري إذاً في أساسه مشروعاً إيمانياً وفكرياً متوازناً توازن الحامل لهذا المشروع والذي لا يتصور له نجاح بدون قلب خفاق وفكر لماح، يقول الشيخ في بيان هذا التوازن: «إن الرسائل ليست كبقية مصنفات العلماء تسير على وفق خطى العقل وأدلته ونظراته، ولا تتحرك كما هو الشأن لدى الأولياء المتصوفين بمجرد أذواق القلب وكشوفاته.. وإنما تتحرك بخطى اتحاد العقل والقلب معاً وامتزاجهما، وتعاون الروح واللطائف الاخرى، فتحلّق إلى أوج العلا وتصل إلى مراق لا يصل اليها نظر الفلسفة المهاجمة فضلاً عن إقدامها وخطواتها، فتبين أنوار الحقائق الإيمانية وتوصلها إلى عيونها المطموسة».[١٢]

من الواضح أن منهج النورسي في البناء التربوي يختلف نوعاً ما عن الخطاب الإسلامي السائد والذي يعيش انفصاماً نكداً بين العقل والقلب، التربية والفكر، حيث ينظر إلى التربية الروحية للعاملين في حقل الدعوة بصفتها مجموعة من التوجيهات الإيمانية الخالية من أي بعد فكراني يثبت الإيمان في العقول والقلوب ولعل التيار الصوفي في بعده الطرقي والحركي أظهر من يمثل هذا المنهج الأحادي مع استثناءات معتبرة، كما أن منهج النورسي يختلف بوضوح عن التوجهات الدينية التي تجعل المبدأ الإيماني خاضعاً لتصور كلامي بارد، تحتل فيه المجادلات العقدية مركز الاهتمام.

فالنورسي يرى أن رحلة الإيمان يجب أن تستمر، فهو - صدقاً منه وتواضعاً - لا يدعي أن فكره أو منهجه مبتدأ المرحلة، بل إنه يقيم تصوره على استصحاب الكسب الإيماني الأصلي الذي يمثل رأسمال الأمة، وعلى هذا الكسب المجترح سلفاً يقام الإيمان في صفته النورية القرآنية، ولهذا فالمعركة في نظر النورسي ليست في إقناع الناس

---

١٢ نفسه، ص ١٠٥.

بالإيمان؛ بل هي في تثبيت هذا الإيمان وترسيخه. هذا التصور الرصين قاد النورسي إلى الاستفادة من التراث، والتوسل بكل الآليات التراثية أو قل السلفية التي أبتليت كفايتها الإجرائية في خدمة العقيدة وترسيخ الإيمان. فلم يخاصم النورسي تراثه بل استثمره انطلاقاً من منهجه الاستصحابي يقول: «أما رسائل النور، فلكونها معجزة معنوية للقرآن الكريم فهي تنقذ أسس الإيمان وأركانه، لا بالاستفادة من الإيمان الراسخ الموجود، وإنما بإثبات الإيمان وتحقيقه وحفظه في القلوب وإنقاذه من الشبهات والأوهام بدلائل كثيرة وبراهين ساطعة. حتى حكم كل من ينعم النظر فيها: بأنها أصبحت ضرورية في هذا العصر كضرورة الخبز والدواء».[١٣]

هذا الشمول في اعتبار العقل والقلب وسيلة ناجعة في الوصول إلى الإيمان التحقيقي وهو مقام يتحول فيه الإيمان إلى ما يشبه الأمور البدهية في البرهان يقول: «هذا النوع من الإيمان التحقيقي، فلا يتوقف في حدود العقل فحسب بل يسرى إلى القلب وإلى الروح وإلى السر وإلى لطائف أخرى فيترسخ فيها رسوخاً قوياً بحيث لا تصل يد الشيطان إليها ابداً. فإيمان أمثال هؤلاء مصون من الزوال باذن الله.

إن إحدى طرق الوصول إلى هذا الإيمان التحقيقي هو بلوغ الحقيقة بالولاية الكاملة بالكشف والشهود، وهذا الطريق إيمان شهودي يخص أخص الخواص.

أما الطريق الثاني فهو تصديق الحقائق الإيمانية بعلم اليقين البالغ درجة البداهة والضرورة، وبقوة تبلغ درجة حق اليقين، وذلك بفيض سر من أسرار الوحي الإلهي من جهة الإيمان بالغيب وبطراز برهاني وقرآني يمتزج فيه العقل والقلب معاً».[١٤]

٤ - أخلاقية العمل الإسلامي ونفي البعد الشخصاني

من القوانين المتحكمة في العمل السياسي مركزية الزعامة، وهي تقابل قانوناً آخر متحكماً في الممارسة العرفانية وهي مركزية المشيخة، المنهج الأول يقوم على استثمار الرأسمال الرمزي للزعيم في عملية الاستقطاب اليومي للجماهير التي يراد بدورها استثمارها في التدافع السياسي، ولا يخفى أن العمل الإسلامي المعاصر دخل بطريقة شعورية في شرنقة هذا القانون، وتحول إلى أحد "ماصدقاته"، حيث إن الزعامات

---

١٣ **ملحق قسطموني**، ص ١٠٥.

١٤ نفسه، ص ١١١.

الإسلامية السياسية التقليدية لا زالت تهيمن على العمل السياسي في الوقت الذي تطالب فيه الأنظمة بضرورة التغيير ومراعاة سنة التداول على السلطة[١٥]. وفي مجال العمل الصوفي أو العرفاني يحتل الشيخ ذات المرتبة التي يحتلها الزعيم السياسي وربما أكثر مع الخلاف المعتبر في طبيعة الدلالات الرمزية التي يمثلها الشيخ الصوفي، والذي تستثمر سلطته الروحية في توسيع قاعدة المريدين. في المجال النوري يلاحظ أن ثمة تركيزاً على البعد الرمزي للأفكار التي تمثلها رسائل النور، مع حرص متواضع ولكنه بناء على الضرورة التربوية في استبعاد الشخص ولو كان النورسي نفسه، هنا يظهر أننا أمام دعوة صريحة للأتباع حتى يدوروا في فلك الفكرة بدلاً من الدوران في فلك الشخص، يقول: «إنه لا يمكن قبول حسن الظن المفرط نحوي ومنحي مقاماً وأهمية تفوق حدي ألف درجة، إلاّ إذا كان باسم رسائل النور وخدمتها، وكونها داعية ودلاّلة إلى جواهر القرآن الكريم. نعم ليس لي حق قط قبول مثل هذا الظن الحسن باعتباري الشخصي الذي لا أهمية له إطلاقاً».[١٦]

لكن كيف يتم لهذا الرجل الألمعي أن يوفق بين واجب التبشير برسائل النور ودعوى التفاخر وتضخم الذات؟ لقد كان التوفيق هنا منبعثاً ليس من استراتيجية حركية تحاول إبعاد التهمة خوفاً من خسران حركي، وبل الجواب كان أخلاقياً في بعده، إيمانياً في مصدره، حضارياً في وعيه بطائع الصراع وخصائصه. فلكي يدار العمل الإسلامي على مركزية أخلاقية لا بد من تحقيق مطلبين:

١- نـــزع الصفة الشخصية عن الذات العاملة

بحيث تتحول الذات الداعية إلى أداة في يد الأقدار[١٧]، تجتهد، وتعمل وتستفرغ الوسع فلا تنسب ذلك إلى نفسها بل إلى الألطاف الإلهية، والتقديرات الربانية، وحينها يتحقق بهذا النكران للذات رصيد من الصدق يجعل كل نتائج العمل الإسلامي عملاً قدرياً، لا في النظر إليه من الآخرين بل في تقييمه من قبل الذات التي أنتجته وأخرجته

---

[١٥] يمكن هنا استثناء بعض التجارب الإسلامية التي حاولت التقليل من البعد الشخصاني في العمل الحركي لكن خطابها العام بقي خطابا تحكمه الموازنات السياسية بدل المبدئية الأخلاقية.

[١٦] **ملحق قسطموني**، ص ١٠٨.

[١٧] يشار هنا إلى القاعدة الذهبية للنورسي في القدر: من آمن بالقدر سلم من الكدر.

إلى الوجود. هذا الصدق مع الله يفك الإنسان من الارتباط الآلي بالأسباب المادية بل وحتى بسنن التغيير ذاتها والتي تضخمت في أذهان كثير من العاملين للإسلام حتى أضحت إلهاً من دون الله مع أنه خالق هذه السنن ومبدعها وهو القادر إن شاء أن يحولها حيث شاء بقدره ومشيئته. لقد تحولت الذات عند النورسي إلى شخص اعتباري وبعبارة الرسائل إلى شخص معنوي، تحدده الفكرة لا الشخص والمبدأ لا الفرد، فهذا «الزمان، زمان الجماعة، فالأهمية والقيمة تكونان حسب الشخصية المعنوية للجماعة. وينبغي ألاّ تؤخذ بنظر الاعتبار ماهية الفرد المادية الفردية الفانية، ولا سيما شخص ضعيف مثلي الذي لا حول له ولا قوة، فإن منحه أهمية تفوق قيمته ألف درجة وتحميل كاهله ألوف الأرطال وهو الذي لا يتحمل رطلاً واحداً لا شك انه ينسحق تحت الحمل هذا».[١٨]

فالذي يتحرك للإسلام في نظر النورسي ليس هو الشخص، وإنما هو شخص اعتباري معنوي تمثله أفكار الرسائل وتصوراتها، يقول: «أما الآن فقد بعث المولى الكريم "رسائل النور" التي هي بحكم شخص معنوى، وبعث طلابها الذين هم - بسر التساند والترابط - بحكم الفرد الفريد، إلى هذا العصر ، عصر الجماعة، المحاط بالظروف المعقدة والاوضاع الرهيبة، لأجل القيام بتلك المهمة الجليلة.

وبناءً على هذا السر الدقيق فان جندياً مثلي، لا وظيفة له إلاّ وظيفة الطليعة لدى مقام المشيرية المثقلة بالمهام الجسيمة...».[١٩]

٢- نــزع الصفة الشخصية عن موضوع الدعوة

لا شك أن العمل الإسلامي حين يتصورالواقع المنحرف بصفته موضوعاً للدعوة عبارة عن أشخاص يكيدون للدعوة، ويبحثون عن وسائل إفشالها، فإنه يكون تحت رحمة تصور بسيط لطبيعة المعركة، حيث تصبح صراعاً بين أشخاص يريدون

---

١٨ **قسطموني**، ص ١٠٠ وراجع في هذا أيضا : **قسطموني**، ص ١٠٨، وأيضاً محاورته الجميلة مع أخيه عبد الله حول المشيخة الصوفية **قسطموني**، ص ١٣٣-١٣٤.

١٩ **قسطموني**، ص ١٠١ ولعل من أدل كلمات النورسي على هذا قوله لأحد طلاب النور: "يا سعيد! كن صعيداً، في نكران تام للذات، وترك كلي للأنانية، وتواضع مطلق، كالتراب. لئلا تعكر صفو رسائل النور وتقلل من تأثيرها في النفوس. **قسطموني**، ص ١١٠.

الإصلاح، وآخرين يحاربونه، وهذا ما جعل الخطاب الإسلامي ضعيفاً من الناحية الأخلاقية، مليئاً بالسب والتفسيق لأشخاص بأعيانهم وخصوصاً في مرحلة الفتنة والابتلاء، ولقد أثبت هذا الخطاب فشله وخضع لمسار من التعديل اقترب فيه كثيراً مما توصل إليه النورسي، فمؤسسة الباطل شخص اعتباري أيضاً، إنه عبارة عن نسق من العلاقات والرموز الثقافية التي كللت المنظور الفكري والوجداني لهؤلاء الذين يواجهون رسالة النور «ثم إن رسائل النور تحاول اولاً إقناع نفس مؤلفها ثم تخاطب الآخرين؛ لذا فالدرس الذي اقنع نفس المؤلف الامارة بالسوء اقناعاً كافياً و تمكّن من إزالة وساوسها وشبهاتها إزالةً تامةً لهو درس قوي بلاشك، وخالص أيضاً بحيث يتمكن وحده من أن يصد تيار الضلالة الحاضرة التي اتخذت شخصية معنوية رهيبة - بتشكيلاتها الجماعية المنظمة - بل أن يجابهها و يتغلب عليها».[٢٠]

ولعل المتمعن في مسيرة العمل السياسي الإسلامي يلاحظ أن التربية الحزبية القائمة على مفاهيم الولاء التنظيمي، والطاعة الواجبة للقيادة، والتنفيذ للأوامر هيمنت على الجماعات المعاصرة، وخلقت جواً من الجمود الإيماني والفكري نتج عنه انحسار في المد الإسلامي، وتباطؤ لخطابه عن مسايرة المتغيرات الحالية، ولقد أدى هذا النوع من التربية إلى أمراض أخلاقية تفت في عضد الحركات وتحولها إلى أتون من الصراعات والتقاطبات التي تفشل وتذهب الريح، ومن الأعراض البارزة لهذا السرطان الأخلاقي أي التحزب فرح كل بائع ببضاعته، ورغبة في قصر الخير على ذاته، وكلهم يتغنى بالتوحيد ونبذ الخلاف وحال لسانه يقول لا تتحدوا إلا على ما أقول «إن أريكم إلا ما أرى». وهذا مرض في سيكولوجيا الأحزاب قديم، ولابن تيميه رضي الله عنه نص نفيس أحفظه له بنصه يشير إلى هذا الواقع إشارة جلية فقد ورد في الرسائل والمسائل أن رجلاً سأله عن الأحزاب فقال: «كلهم مؤمنون، فإن كانوا زادوا في ذلك أو نقصوا مثل التحزب لمن دخل في حزبهم بالحق أو الباطل أو الإعراض عمن لم يدخل في حزبهم بالحق أو الباطل فهذا من التفرق الذي ذمه الله ورسوله».[٢١]

---

٢٠ نفسه ١٠٥

٢١ هذا النص موجود في الرسائل والمسائل، وهو كتاب قضت صوارف الاغتراب ألا نعثر عليه، فعسانا أن نفعل فيما يستقبل من أيام.

ولقد حاول النورسي معالجة هذا الوضع، ونستطيع مطمئنين أن نقول إن قوة أفكاره وخطورتها على الباطل أنها مبنية على بعد أخلاقي أصيل، فالرجل ليس طالب حكم، لا ولا ناصر فكرة يجادل من أجل إظهارها، ولكنه مصلح بكل ما في هذه الكلمة من جمال وبراءة، فهو منـــزه عن كل حظ يعتور العامل في حقل الإصلاح الاجتماعي، ولا يضيره لهذا أن يجري الله الحق على لسان غيره، ولهذا لم نجد النورسي يذكر جماعة بسوء، بل إنه يأخذ نفسه بالقسطاس المستقيم فيرجع بعض المحامد إليهم ولولا هذا العمق الأخلاقي في بنائه التربوي، لضاقت نفسه عن ذكرهم بخير، ولتاقت إلى أن تنسب لها مجمل ما اجترح من عمل في سبيل الله، وهنا يكون الإصلاح النوري إصلاحاً شاملاً تطلبه الأمة ولا ترفع شعاره جماعة بذاتها، إذ كلما تحيز المشروع الإصلاحي في إطار محدد، فقد امتداده وجاذبيته لما يورثه في نفوس الحاملين له من التعصب والتحيز، ولما يدخله في قلوب المناوئين له من العداء والتربص فيضيع المشروع وتنتهي فعاليته.